الجزء الاول من المقتطف

بعد الدكتور صروف

صدر الجزء السابق من « المقتطف » بعد وفاة الدكتور صرُّوف بنحو ثلاثة اسابيع . صدر مخططاً بالسواد حداداً عليهِ . وأُفردَت صفحات من ذلك الجزء لتلخيص ترجمة حياتهِ وتأبينهِ والتحدُّث عنهُ . على ان بقية الصحائف كانت مستمدةً من وجوده ، طافحةً بنفثات قلمهِ ، ناشرةً آثار جدّهِ واجتهادهِ

وهذا الجزء هو الاوَّل بعدهُ ، الاول من مرحلةٍ جديدة ستجيء خالية من نفثات قلمهِ وثمرات بحثهِ وعلمهِ . . . كالخيال مرَّت تلك الشخصية الكبيرة العاملة في هدوء ورزانة ، المنعكسة في مرآة هذه الفصول وهذه المجلدات خمسين عاماً متوالية بلا توانٍ ولا انقطاع

ان صورة الخيال في المرآة صورة قديمة مألوفة . ولكنها كبعض الاستعارات الفريدة التي اهتدى اليها الاقدمون ، كلٌّ من ناحيته ، في اكثر اللغات — بيئة صحيحة لا يستعاض عنها بغيرها لتمثيل الحياة الفردية الزائلة . وكلما جرت على براعةٍ بشرية أو خطرت في فكر بشريٍّ برزت كأنها بنت ساعتها وباكورة مبدعها

ذلك لانَّ من الاسماء والمسميات والاستعارات ما هو بعيد الغور بمعناهُ ومدخرٍ يقتضي استفهامهُ واكتناهه كلما ورد لنا ، حتى ولو تكرَّر ذلك التواردُ كلَّ يوم مرات وعرفنا تلك الكلمات والتشبيهات منذ أقصى عهد الطفولة

وفي مقدمة تلك الاوضاع فكرة الموت وما يكنى بها عنهُ . الموت الجمّ الالتاز ، الغزير الاسرار . . . الذي نزعمُ انهُ خيالٌ في مرآة الحياة في حين ان الآجال خيالات في مرآته . . .

***

أكثر التساؤل بعد وفاة الدكتور صروف عن معتقده الدينيّ عموماً ، وبوجهٍ أخص عن رأيهِ في العالم الآخر . ووجَّه بعضهم طائفة من الاسئلة إليَّ ، وهم مرتابون في ان يكون لديهِ رأيٌ من هذا النوع . بل كانوا يميلون الى ان هذا العالم الرياضي الشوقي كان يقصر همهُ على ما يقعُ تحت الحسِّ ، ولا يذهبُ بيقينهِ الى عالم الغيب ، هذا إن لم يكن من جاحديهِ على الاطلاق

وجواباً على هذا أقول ان عالمنا العظيم كان يعتقد بوجود عالم آخر وكان شديد التشوُّق إلى ولوجهِ من باب الموت . وقد ابدى هذا التشوق مرات عديدة امام محادثيهِ وأقرانهِ في العلم والادراك ، وبسطهُ في بعض رسائله الخصوصية ، كما ألمع اليهِ بلهجات مختلفة خلال أبحاثهِ في « المقتطف »

وهاك شيئاً من ذلك في أحد خطاباته الخصوصية :

« ولا ادري لماذا لا نقنع انفسنا ان الدار الدنيا مرحلة من مراحل الابدية . اننا نجهل ماضينا تمام الجهل ولا نعرف مستقبلنا معرفة يقينية . ولكننا نود ان تبقى عقولنا وان ندرك بها ما نعجز عن ادراكه هنا من غوامض هذا الكون . انا اتوق الى ذلك وامني به نفسي كل يوم وكلما وجدت في بحثي مشكلاً يتعذر عليَّ حله

« مرضت مرة بالتيفوئيد وقطع الرجاء مني ولما علمت ذلك فرحت عني وتجردت عن الدنيا بعد ان ودعت زوجتي الوداع الاخير ورتبت امر معيشتها ومعيشة اولادي . وصرت اتوقع الانتقال ساعة بعد ساعة وانا اتوق اليه . ولم يخطر ببالي الا انني سأتمكن من معرفة ما وراء الغيب ومن حل ما اشكل عليَّ في هذه الدنيا . ولو عاش الناس كلهم في هذه الدنيا منتظرين الاخرى لانتفى اكثر ما فيها من الشرور والآلام وانكسرت شوكة الموت »

هذا رأيه في الموت من اغمض نواحيهِ . اما هذا « المقتطف » الذي كان شغله الشاغل مدة نصف قرن ، فكثيراً ما كان يفكّر في ما سيصيرُ اليهِ بعدهُ كما يتساءل احياناً عن حكم الاجيال التالية فيهِ

وهذه جملة في هذا الباب وردت في رسالة خصوصية :

« لا ادري ما يكون حكم الاجيال المقبلة على العمل الذي قمت به . أينظرون اليهِ بالعين التي تنظرين اليه بها فيغتفرون زلاته أو لا يرونها ويشيدون بمحسناته او يطرحونه في زوايا النسيان . ان عاشت العربية فالراجح عندي انه يقوم اناس منصفون يغتفرون العيوب ويقولون انني فعلت ما ينتظر مني كله أو أكثره »

***

واجب نشر هذين الرأيين من آرائهِ في الجزء الاول بعده . ومرجوّي ان يتاح لي ان اقدّم بعدهُ صورة حية صادقة ، بلا غلوّ ولا انتقاص من الدكتور صرُّوف

ولا حاجة في تصويرها الى غير ما خطته يده في ابحاثه ورسائله

لنقدر عمل صروف يجب ان نتقلب عائدين الى الوقت الذي انشأ ينشر فيه العلوم الرياضية والطبيعية والتاريخية منذ خمسين عاماً ، يوم كانت العلوم في مجموعها بيننا كلاميَّة يابسة لا بحث فيها ولا تحقيق ولا تمحيص . ولنقدر عمله يجب ان نذكر انه كان يكتب أبداً بانشاء الايجاز والاحكام ، دون التقاضي عن لفظة واحدة الا في تحتمها لاتمام الموضوع أو لجلاء المعنى . وذلك يوم كان بالانشاء كله استعارات ومغالاة وإعجاز في البيان والبديع

فكانت هذه البذور الحيَّة النفيسة التي تتلقاها اليوم من يده ومن مجموعة « المقتطف » في عهده . ونحن ننظر إلى مستقبلها بين الثقة والرجاء لان صاحبها هو الذي اختار من يكون أميناً عليها ، عاملاً على استغلالها وإنمائها والتصرف فيها والسير بها في طريق فتحه مجدها القديم ، واوسعت فيه احكام التطوُّر والحياة المتعاقبة المتجددة

***

هذه كلمات تحتم إرسالها في هذا الجزء من « المقتطف » بعد الدكتور صروف وقد حاولت ان أحبرها بصفاء ذهن وتغلب على العاطفة ، إذ لا يجدر التحدث عن هذه الشخصية العلمية إلا بهدوء وتبصر

ولكني في الختام لا يسعني إلا ان اذكر انَّ بين الجزء السالف وهذا الجزء انفتح هناك في مصر القديمة قبرٌ أودعناه عزيزاً . ولا يسعني إلا ان اقرر انَّ هذا شهر نوفمبر ، شهر الموتى ، شهر الذكرى للراحلين

لا يسعني إلا ان اذكر ان بيت الدكتور صروف خلا منه ، وان تلك السيدة النابهة ، قرينته المتربعة بالوقار والكمال ، وان ابناءه واخوانه واصحابه ما أداروا الطرف إلى مكانه الفارغ إلا ليبحثوا عنه وهم قانعون في حزنهم — انه ليس فيه

لا يسعني إلا ان اذكر انه كان الصديق الباقل الوديع الطيب العطوف ، في هذه الحياة التي كثر عندها اسم الصداقة وندر معناها الصميم

أذكر انه لن يأتي بعد إلينا بالجسد فلم يبق لنا الا محاولة المضيّ اليه بالاذكار

اذكر اننا لن نرى بعد وجهه الصالح الباسم ، ولن نرغد بعد بوجوده المحسوس ومظاهر عطفه فتنقلب هؤلاء الناس الضعفاء الذين تختفهم الغيرات ... « ي »